عبدالرحمن الخميسى (١)

كسروا يراعى ولكنى حفرت على
جدران مصر أناشيدى بأظافرى
وحيث هم صلبونى كلما بزغت شمس
رأى الناس فيها لون أشعارى
عبدالرحمن الخميسى

هذا الفتى الجميل حيرنى، لم أعرف كيف أبدأ معه أو أكتب عنه، فعبدالرحمن الخميسى الذى تألق فى السماء المصرية كواحد من أكبر وأشهر مثقفيها كان متعدد المهن ومتعدد الكفاءات، وتمضى به المهن غريبة بغرابة الرحيل، فقد بدأ كصبى بقال ومضى فى مهن عديدة كمسارى أتوبيس - شاعر - كاتب قصة - صحفى - مؤلف موسيقى - ممثل - مخرج سينمائى - مخرج مسرحى - كاتب مسرحى - كاتب سيناريو، وفى كل هذه المهن كان رائدا وناجحا ومتألقا، وهو فوق هذا كان واحدا من أشهر الحكائين فى زمانه يسيطر على كل جلسة بروح شديدة المرح، قاسية السخرية.

والفتى بدأ حياته ضحية لزواج فاشل فبعد عام واحد من ولادته تزوج الأب من زوجة أخرى وطلق أمه التى أسرعت فتزوجت بآخر وتاه الرضيع بين أب لا يريده وأم لا تريده فنقلوه من بورسعيد إلى قريتهم منية النصر - دقهلية ويظل الخميسى حتى آخر أيامه ورغم كل ما حقق من مجد يشعر بمرارة السنوات الأولى ويكتب عنها أشعارا مريرة..

أيها الماضى ألا تعرفنى
شد ما ألقاك قد أنكرتنى
أنت فى قطعة كفنتها
بسنينى وطواها زمنى

أنت بنيان آقمنا فوقه

حاضرا.. يا ليته لم يكن

وفى سنوات الفقر والضياع اشتد حقده على الأغنياء لكنه اكتشف سلاحا جديدا لمحاربتهم، وإذ كانت أسرة الحديدى هى رمز هذا الثراء فى قريته فقد حاول إقناعهم وهو لم يزل طالبا فى المنصورة الثانوية أن يتبرعوا له ليقيم مسرحا وناديا ثقافيا، رفض الإقطاعيون التبرع لهذا الولد، وجد قطعة أرض خالية وفى المساء جمع الشبان الفقراء وهاجموا المدافن الفخمة لكبار الإقطاعيين، انتزعوا منها كل شىء الأبواب والشبابيك والأرضيات.. وفيما يفككونها كان يصيح ويصيحون معا «أحياء الفقراء أهم من موتى الأغنياء، وهكذا كانت بدايته النضالية مع الفقراء ضد الأغنياء، وفى الإجازات الصيفية كان يجمع الفلاحين ليقرأ لهم «سيف بن ذى زين» و«أبوزيد الهلالى» وتأبى المرارة والفقر إلا مطاردته، مات الأب، ثم ماتت الأم ولم يعد يجد من يعوله، فعمل صبى بقال ثم كمسارى أتوبيس، لكن الفن يلاحقه ويفرض عليه إرادته فيعمل مؤلفا لاسكتشات تمثيلية وغنائية لفرق مسرحية فقيرة تجوب القرى والموالد ويجوب معها مرددا لما عشقه وظل يعشقه طوال حياته، يؤلف الاسكتشات ويغنيها ويلعب دور المهرج الذى يضحك الجماهير، ثم هاجر إلى القاهرة ليمتهن مهنة غاية فى الغرابة يكتب مقالات وقصص وروايات وأغنيات ينشرها المشترون ليضعوا عليها أسماءهم اللامعة ويعود هو بالفتات ويقول: «وطوال فترة صعلكتى القاهرية وحتى بعد أن أصبحت شهيرا عشت ملتحفا بمحبة دائمة مع الأب الروحى للرومانسية المصرية د. إبراهيم ناجى لكن رومانسيته كانت مليئة بالحنان أما رومانسيتى فقد كانت مليئة بالحزن والألم» (محضر نقاش معه أجرى فى ١ نوفمبر ١٩٧٢ فى بغداد) وأقلب فى رومانسيته وأقرأ..

وارتياحى إلى الظلام.. ويأسى وحنينى إلى السكون الرهيب

وهروبى من الحقيقة بالليل.. فأترع بخمرة الوهم كوبى

وأقرأ فى مقدمة ديوانه الأول «أشواق إنسان» «هذا الديوان كل قصيدة فيه مسقية من وجدانى، مورقة برحيق ألمى، بدموع يأسى أو فرحى، متوردة بدمى»، إنه الألم القديم المترسب فى أعماقه والذى دفعه إلى أن يقول وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره

علام أضحك يا ويلاه من زمنى وشاطئ فوقه الأهوال ترتطم

لكنها ضحكة البركان قاذفة — من قلبى النار أذكى أصلها الألم
إنى أقول لهذا الظلم فى صلف — اشرب دمائى واثمل أيها النهم
هيهات تبلغ إذلالى وتخضعنى — إنى قوى عتى ثائر برم

وتظل كلمات «إنى قوى عتى ثائر برم» تغلف كل معايير حياته، ويمضى الفتى إلى يافا حيث يجد عملا مستقرا ومرتبا مجزيا فى إذاعة الشرق الأدنى كان يذيع النشرات والبرامج ويؤلف ويخرج ويكتب قصائد ويقدم نقدا أدبيا، قال لى ذات يوم فى لقاء معه فى موسكو «لو جمعت أعمالى فى يافا لصارت هرما، كنت أعرف أن محطة الشرق الأدنى يديرها الإنجليز لكننى وجهت أغلب برامجى ومسرحياتى الإذاعية ضد الخطر النازى والفاشى وأرضيت ضميرى وسكت الإنجليز، لكن الحركة الوطنية تلتهب فى مصر فى ١٩٤٥ وهى تلتهب ضد الإنجليز فيقذف بكل شىء المرتب الكبير والمسكن الفخم والاستقرار المريح ويعود إلى عشه القديم، لكنه يأتى هذه المرة ومعه اسم لامع، وتثقله المسئولية عن زوجه وأولاد، ويجد موقعا صحفيا مميزا فى صحيفة الحوادث الوفدية ويطلق لقلمه العنان فتغلق المجلة ويحاولون القبض عليه فيهرب إلى الفيوم، وعندما تهدأ الأمور يعود ليتألق اسمه من جديد فى عديد من الصحف والمجلات.. وبعدها يلتحق بالصحيفة الأكثر شهرة وهى «المصرى» ويصبح واحدا من أبرز محرريها بل واحدا من أكثر الصحفيين والكتاب المصريين شهرة وإبداعا، ويلمع أكثر وأكثر على صفحات المصرى عندما ينشر «ألف ليلة وليلة» بعد أن أعاد صياغتها بأسلوبه العصرى الرشيق.

ونواصل رحلتنا مع هذا الفنان المناضل الذى ظل يشدو دوما «إنى قوى عتى ثائر برم».